الاثر الحضاري للزواج المختلط بين العرب الفاتحين والنصارى الاسبان

لم تمنع طبيعة المجتمع الأندلسي ، الذي اتسم بتعدد أعراقه وجنسياته ، من عرب وبربر وصقالبة ومسلمين وإسبان ، من التواصل معهم وإقامة علاقات اجتماعية معهم. وضعت الأندلس أروع الأمثلة على التسامح الديني والتعايش الاجتماعي ، فعاشوا جنباً إلى جنب في وئام وانسجام. كانوا يعيشون بجوارهم ويشاركون حياتهم اليومية دون استبعاد أو تهميش. كما لابد ان نذكر هذه الزيجات المختلطة التي لعبت دورًا مهمًا في مستويات مختلفة ، وكان من شأنه أن يحافظ على العلاقات الاجتماعية ، على الرغم من الفروق الفردية والجنسية والعرقية ، وكان من شأنه أن يحافظ على الوجود الإسلامي في الأندلس خلال تلك القرون

و في الغالب أن الجيل الفاتح للأندلس دخل هذه البلاد الغريبة رجالا دون نساء، فمن الضروري أن يتخذوا من نساء وبنات البلاد المفتوحة زوجات وأمهات ولد، فما ان انتهت عمليات الفتح حتى أخذ الفاتحون يرتبطون من بنات المدن المفتوحة، حيث قدرت المصادر التاريخية عدد النصرانيات اللائي ارتبطن بالمسلمين بـ 30 ألف نصرانية، وأمام هذا الرقم الكبير نجد من المستحيل أن يكون الزواج من نصرانيات مقتصرا فقط على السبي فترة الفتح، وإنما كان هناك عدد آخر من المصادر يكون قد شكل هذا العدد، وأهم هذه المصادر هي :

١ - سبايا الحروب :

وهو المصدر الأكبر من عمليات الزواج المختلط في ا لأندلس فترة الفتح أو باقي الفترات، حيث تكون إما زوجة أو أم ولد، فيذكر صاحب كتاب "نبذة من أخبار فتح الأندلس" أن خيار ما أصابه طارق بن زياد ومن معه فترة الفتح هو السبي من النساء، وفي الغالب يكثر العدد على حسب قوة حكام وأمراء الأندلس، حيث في فترات القوة تكثر الصوائف والشواتي التي يكون من نتاجها كثرة السبي، وهو الأمر الذي نلاحظه بجلاء مثلا فترة عبد الرحمن الناصر والذي على قول المقري : "...دوخ ملوك الفرنجة، وأفزع قلوبهم، وسبى نساءهم، ولم يبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس، وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة..."، وكذلك الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، والذي قاد أكثر من خمسين غزوة ضد النصارى، فكثر

السبي من النساء حتى أطلق عليه أهل الأندلس اسم "جلاب"، وهذه الكثرة أدت إلى رخص أثمانهن، وفي هذا المقام يذكر المراكشي أنه " قد نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة، وكانت ذات جمال، فلم تساوي أكثر من عشرين دينارا"، فأقبل الناس على الزواج من سبايا النصارى تاركين بنات الأحرار، وهو ما دفع والد كل فتاة حرة إلى المغالاة في تجهيز ابنته بأفخر وأغلى المتاع، ولو لا ذلك لم يتزوج أحد حرة، لهذا شكلت السبايا مصدرا مهما من مصادر الزيجات المختلطة بين المسلمين والنساء من القوط.

٢ – تجارة الجواري :

ينعكس هذا المصدر مباشرة كنتيجة للمصدر الأول والذي هو الغزو، حيث كل الجواري اللائي يبعن في الأسواق هن نتاج الحروب التي كانت تدور بين نصارى أوربا الغربية مع جيرانهم من الصقالبة، حيث الاختلاف في الدين، وبإمكانية الشراء تمت عملية تداول الجواري على نطاق واسع في الأندلس حتى كان نصيب العامة منها نصيبا كبيرا، فبلغ عدد نساء قصر الزهراء مثلا 6314 امرأة، ورغم ذلك لا نستطيع ان نتصور أن عملية البيع والشراء كانت تتم بأبسط الأشكال، وإنما كانت تتم بحضور كاتب العقد والشهود، ويتحدد ثمن الجارية دائما على أساس الجمال والعلم، حيث لا أثر هنا للحسب والنسب، فالجمال كان السبب الأساسي لاختيار الجارية عند الأندلسيين عامتهم وخاصتهم، أما العلم فيكون في المقام الثاني في تحديد ثمن الجارية، فالجارية المتعلمة أغلى ثمنا من الجارية الأمية، وفي هذا الصدد ذكر عن الفقيه والمؤرخ ابن حزم الظاهري أنه قد تلقى علومه الأولية في بيته، حيث طلب والده إلى بعض جواريه أن يقمن بتلقينه الأشعار والأخبار وهو ما يقوله عن نفسه :

"وهن علمنني القرآن، وروينني كثيرا من الأشعار، ودربنني فن الخط..".

من خلال ما سبق نستطيع القول بأن أسعار الجواري تزداد ارتفاعا كلما تعددت صفات الجارية واتسعت ثقافتها، فيكون الجمال هو الأصل الأول في الاختيار، ويأتي بعده العلم من حفظ للأخبار ورواية للشعر، كما توجد صفات أخرى أثرت في السعر مثل إجادة العزف والغناء والرقص، فدخلت الجارية في صلب المجتمع الأندلسي عامته وخاصته، حيث بمرور الوقت

تتحول الجارية إلى أم ولد في حالة الإنجاب، فكانت بهذا الجارية أما لكثير من الملوك والأمراء البارزين، حيث كان لهن دور كبير في أمور الحكم والسياسة، مثل صبح البشكنجية زوجة الحكم المستنصر بالله .

3- المصاهرة :

منذ بداية الفتح الاسلامي للأندلس حدث التمازج والاختلاط والتعايش مع أهل البلاد الأصليين، وذلك امتثالا للتعاليم الاسلامية التي تحفظ للإنسان حقوقه العامة مهما كان دينه، هذه الوضعية دفعت بأعداد كبيرة من النصارى إلى الإسلام فكانت المصاهرة والتزاوج عنوانا هاما للظاهرة الأندلسية، فكان عبد العزيز بن موسى بن نصير من أوائل الذين تزوجوا من اسبانية، وذلك حين تزوج من امرأة لُذريق في اشبيلية، وسار على نفس المسار عدد كبير بعده، وعليه لم يكن من أمراء بني أمية من كانت أمه حرة أصلا، إذ كانت أمهاتهم من نصارى الشمال أو من البربر أو من الرقيق الصقلب، إلى درجة أنه وفي العديد من الحالات التي جعلت من خلفاء بني أمية أقارب لملوك النصارى من حيث الأم.

وفي المقابل كان الزواج العكسي متوفرا أيضا حيث تزوج الإسبان من أندلسيات مسلمات، خاصة من فئة المولدين، ومثال ذلك المصاهرات التي تمت بين أسرة بني قى من المولدين مع بني حكام نبرة في الشمال الأندلسي.

ثالثا : مبررات اتخاذ الاسبانيات زوجات أو أمهات أولاد للاندلسيين

١. إباحة الاسلام اتخاذهن: أباح الاسلام للرجل اتخاذ الأزواج إلى أربع ومن الجواري ما شاء، وهو الموضوع الذي فصل فيه العديد من الباحثين المتخصصين في الفقه مبررين أوجهه، لهذا أكثر الأندلسيون في هذا الباب بشكل ملفت، فعبد الرحمن بن أبي عامر الملقب بشنجول اتخذ 70 من الجوار ي كن يعشن تحت سقف واحد، كما أن عبد الرحمن بن الحكم الثاني كان له عدد كبير جدا من الجواري، هذا بالنسبة للمرأة الجارية، أما بخصوص المرأة الحرة من غير

المسلمين، فإن الاسلام على مذهب الامام مالك أباح للرجل المسلم الزواج من المرأة النصرانية أو اليهودية على اعتبار أنهما من أهل الكتاب.

٢. **الجمال :** من بين الأسباب التي أدت إلى اتخاذ المسلمين في الأندلس الإسبانيات زوجات وأمهات أولاد هو ما تتمتع به هذه الأخيرة من سمات الجمال مقارنة بغيرها، لذلك نجد ابن الخطيب يصف لنا حريمهم وصفا دقيقا حين يقو ل : " وحريمهم جميل موصوف بالسحر، وتنعم الجسوم، واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطيب النشر، وخفة الحركات، ونبل الكلام، وحسن المحاورة، إلا أن الطول يندر فيهن" وهي الصفات التي حسب ابن الخطيب لا تتوفر عند العرب، لهذا نجد طارق بن زياد في الخطبة المنسوبة إليه، يغري جنده بفتيات القوط على أساس أنهم إذا انتصروا سيظفرون بهن : " وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان ،"وعليه استكثر أمراء بنو أمية من نساء النصارى حتى تغيرت ملامح أبناءهم ،فأصبحت مثلا شقرة شعورهم غالبة عليهم، فلا تجد أميرا من أمراء بني أمية ابن حرة، ولا غرابة أيضا أمام هذه الوضعية أن تجد شاعرا من شعراء بني أمية وهو مروان بن عبدالرحمن قد خصص أغلب شعره على النساء ذ وات الشعر الأشقر.

٣. **علمهن :** ذكرنا سابقا أن من محددات سعر الجارية في الأندلس بعد الجمال يكون العلم، حيث لا وجود لما تعارف عليه المسلمون من الحسب والنسب، فكان من بين الجواري الشاعرات والأديبات والمغنيات والمتفقهات اللواتي يروين الحديث، وأحسن مثال على ذلك **الجارية عابدة وهي جارية سوداء من رقيق المدينة تروي من الحديث عشرة آلاف حديث،** وعلى الرغم من أنها لا تتصف بالجمال، إلا أن حبيب بن دحون أعجب بعلمها وفهمها فاتخذها جارية له، حيث ولدت له بشر الذي صار هو الآخر محدثا في أيام الأمير الأموي عبد الرحمن الثاني .